ثلاث محاضرات

ألقاها العلامة الجليل السيد

محمد الخضر حسين

فى نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة

(١) السعادة عند بعض علماء الإسلام

(٢) صبر محمد صلى الله عليه وسلم ومتانة عزمه

(٣) حياة أسد بن الفرات

القاهرة

١٣٤٨

المطبعة السلفية - ومكتبتها

ثلاث محاضرات

ألقاها العلامة الجليل السيد

محمد الخضر حسين

في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة

(١) السعادة عند بعض علماء الاسلام

(٢) صبر محمد صلى الله عليه وسلم ومتانة عزمه

(٣) حياة أسد بن الفرات

القاهرة

١٣٤٧

المطبعة السلفية - ومكتبتها

السعادة عند بعض علماء الإسلام

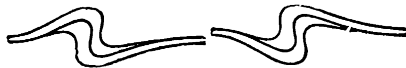
محاضرة ألقيت في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، في صفر سنة ١٣٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وعد حضرة الدكتور الدرديري بأن يلقي محادثة في السعادة عند بعض الفلاسفة من المصريين واليونانيين والغربيين ، ووعدتُ بأن أصِلَ محادثته بكلمة أعرض بها ما يراه بعض فلاسفة الاسلام في هذا السبيل ، وقد قام الاستاذ الدرديري بما وعد فوفّى ، وبقي أن اعرض كلمتى إنجازا لما وعدت ، وعسى أن يجيء مِن بعدنا مَن يزيد الموضوع تفصيلا فنكون لما جاء به من الشاكرين

واذا تناولت في صدر كلمتى بعض آراء فلسفية قديمة فلأنبّه على صلة الفلسفة العربية بالفلسفة اليونانية ، ولنرى فلاسفة العرب كيف أخذوا في شرح السعادة بالتى هي أقوم وأهدى



﴿ الآراء الفلسفية اليونانية ﴾

من يقاسي شدائد الفاقة والبؤس ، يرى السعادة في الغنى . ومن تتقلب به الاوجاع يمينا وشمالا أو يفقد أحد أعضائه ، يرى السعادة في صحة البدن وسلامة الاعضاء . والمستضعف الذي تسلب حقوقه علانية ولا يستطيع خلاصها ، يرى السعادة أن يكون للانسان سلطان أو جاه عند ذي سلطان . ومن أشرب في قلبه الفسوق والخلاعة ، يرى السعادة أن تحف به الشهوات من كل جانب فيطلق فيها عنانه كيف يشاء . ومن وجد منفعته الخاصة في يد المستبد الغاشم ، رأى السعادة في أن يبقى سلطان ذلك المستبد ويقوى

هذه خواطر عامية لا تبلغ أن تسمى مذاهب فى السعادة أو آراء ، وانما نحدثكم فى هذا المقام عن المذاهب التي يقررها أصحابها بعد النظر والبحث ، وسواء بعد هذا أوصلوا الى حقيقة أم وقعوا في خطأ وضلال

والفرق بين الآراء العامية والآراء الفلسفية أن الآراء العامية تنشأ عن احساس خاص في أحوال خاصة ، فالرجل الذي يبدو له أن السعادة في الغنى أو فى صحة البدن — مثلا — انما حدث له

هذا الرأى من ألم الفقر أو شدة المرض، ومن الجائز أن ينتقل الى يسار أو صحة فيتغير رأيه فى السعادة ويذهب في تصورها الى شيء آخر أصبح يحس بشدة حاجته اليه كصلاح حال الولد أو الزوجة أو الاصدقاء

أما المذاهب الفلسفية فانما تتكىء على النظر والاستدلال ، فالذي يقول : ان السعادة فى اللذة الحسية ، لو صدرت منه هذه المقالة وهو يرتع في الشهوات ولم يذكر فى الاستدلال عليها وجها يستوقف النظر ، لقلنا هذه المقالة وليدة الخلاعة ، ولما صح لنا أن نضعها بجانب الآراء الفلسفية ، ولكنها مقالة صدرت من طائفة اوردوا في الاستدلال عليها ما شأنه أن يعلق بكثير من النفوس البائسة ، فكان من حقها أن تدخل في قبيل الفلسفة ولو بوجه كاسف كئيب ، وكان من حقنا أن نتعرض لها بالنقد ونميطها عن الاذهان كما يماط الاذى عن الطريق

فاويدوكس الفيلسوف اليوناني يعزو اليه ارسطو في كتاب الاخلاق ارتياءه أن اللذة هي الخير الاعلى ، ويذهب في الاستدلال على هذا الى أنه يرى جميع الكائنات ترغب في اللذة وتسعى لها سواء أكانت هذه الكائنات عاقلة أم غير عاقلة ، وما كان محط الرغبة من جميع الكائنات يجب أن يكون هو الخير الاعلى

فهذا الاستدلال من أويدوكس يكفي لان يعد رأيه في اللذة مذهبا فلسفيا ، ولنا بعد هذا أن ننقده ونستبين ما يحمله من غلط وفساد

تصدى أرسطو لنقض هذا المذهب في بحث اللذة من كتاب الاخلاق ، ومن ذا يقبل أن تكون اللذة الحسية الخير الاعلى في هذه الحياة إلا من يريد ألا يفرق بين حياة الانسان وحياة غيره من الحيوان ، والفرق بين الحياتين قررته الشرائع وآمنت به الفلسفة ، واذا كنا على يقين من أن الرغبة قد تتوجه الى الاشياء التى لا يختلف العقلاء في أنها شر كان من الخطأ أن نجعل توجهها الى اللذة دليلا على أنها الخير الاعلى في هذه الحياة

ويقابل مذهب القائلين أن السعادة في اللذة ، مذهب فريق من اليونان أيضا ، يزدرون اللذة أيما ازدراء ، ويرون السعادة كلها في قوى النفس التى هي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة ، وقالوا : ان هذه الفضائل كافية في تحقق السعادة ، ولا يحتاج معها إلى ما هو خارج عن النفس من نحو الصحة والثروة والرياسة . ومن أصحاب هذا المذهب بقراط وأفلاطون وفيثاغورس وسقراط ، فالفضيلة والسعادة في رأي هؤلاء مترادفتان ، توجد إحداهما أينما وجدت الاخرى

وذهب آخرون في فهم السعادة الى وجهة ثالثة فلم يجعلوها في اللذة ، ولم يقصروها على الفضائل النفسية ، بل نظروا الى الانسان مركبًا من نفس وبدن فقالوا : ان سعادة النفس لا تكون كاملة حتى تقترن بسعادة البدن كالصحة وسلامة الاعضاء ، وبالخيرات الخارجة عن البدن كالثروة والرياسة

وقد نحا ارسطو فى كتاب الاخلاق هذا النحو فصرح بأن السعادة هي الخير الاعلى ، ولم يجعلها مع هذا مقصورة على كمال النفس بل جعل الفضائل النفسية الركن الاعلى للسعادة وأضاف اليها أشياء اخرى جعلها من متمماتها كصحة البدن وسعة الرزق والنفوذ السياسي وشرف المنبت ووسامة المحيا وحسن السمعة. وأطال حساب هذه المتممات حتى قال « وربما لا يستطاع القول على انسان : انه سعيد ، اذا كان له أولاد أو أصدقاء ذوو أخلاق سيئة ، أو اذا فقد من كان له من أولاد أو اصدقاء »

وبعد هذه الآراء الثلاثة رأيُ الارتيابيين الذين يجعلون السعادة في الخلوّ من الالم ويقولون : من يبغي السعادة ، يسعى الى أن يكون هادىء البال مرتاح الضمير ؛ وهذه الراحة تتحقق ، فيما يزعمون ، حيث يقف الرجل بين اليقينيين والسفسطائيين فلا يقطع في الاحكام باثبات مثلما يفعل اليقينيون ، ولا يقطع فيها بنفي

مثلما يفعل السفسطائيون . فالذي لا يعتمد في حكمه على سلب أو ايجاب ، هو البالغ منتهى السعادة

***

لم يذهب أحد من فلاسفة العرب أو الاسلام ـ فيما اعلم ـ الى أن السعادة في اللذة المحسوسة . وليس من المعقول أن يدرس القرآن دارس ثم ينحط الى هذا المذهب السخيف ، بل يذهب فريق منهم كفخر الدين الرازى الى نفى أن يكون هناك لذة غير الحكمة ، وقالوا : لا لذة الا فى المعارف ، وما يسميه الناس لذة حسية كالمأكل والمشرب انما هو دفع ألم الجوع والعطش ، وما يسمونه لذة خيالية كالرياسة انما هو دفع ألم القهر والغلبة

ومن البديهي أن لا يكون في فلاسفة الاسلام من يذهب الى أن السعادة في الخلو من الالم على النحو الذي يصوره الارتيابيون ، وانما تدور آراؤهم في السعادة حول الفضائل النفسية وحدها ، أوهذه الفضائل مضافة اليها الخيرات البدنية والخارجية ، ونخص البحث في هذه الكلمة برأي أبي نصر الفارابي ورأى احمد بن مسكويه ، فانهما قد خاضا في هذا الموضوع على طريقة نظرية واسعة

﴿ رأي أبي نصر الفارابى ﴾

يذهب أبو نصر الفارابى الى أن السعادة هي غاية ما يتشوّقه كل انسان ، وأنها أكمل ما يؤثر ويسعى اليه من الخيرات . وذكر في تفصيل هذا أن الخيرات التى يؤثرها الناس ويتوجهون اليها برغباتهم ومساعيهم ثلاثة أنواع : (اولها) ما يؤثر لتنال به غاية أخرى ، كالثروة فانه يرغب فيها ليتوسل بها الى مآرب اما محمودة كالانفاق في وجوه البرّ ، أو غير محمودة كاغراق النفس في ملاذها وشهواتها الطاغية

(ثانيا) ما شأنه أن يؤثر لذاته ، وقد يقصد منه غاية أخرى ومثال هذا الرياسة ، فانها مرغوب فيها لذاتها « ياحبذا الامارة ولو على الاجارة » وقد يسعى اليها من يبتغيها وسيلة الى غرض بعدها كجمع مال جم أو الانتقام من عدو

وهذان النوعان ليسا من السعادة ولا السعادة منها

(ثالثها) ما شأنه أن يؤثر لذاته ولا يقصد في وقت من الاوقات لتنال به غاية أخرى ، وما هو الا الخلق الجميل وقوة الذهن ، ثم قال « وهذا هو أكمل الخيرات ، وهذا مايسمى سعادة »

فالخلق الجميل وقوة الذهن عند الفارابي هما المسمّيان بالسعادة ولم يلتفت الى ما زاد عليهما من الخيرات البدنية أو الخارجية

فيجعل له مدخلا في السعادة كما صنع ارسطو في كتاب الاخلاق

ويعتمد الفارابى في اختيار هـذا المذهب الى أن سعادة الانسان يجب أن تكون في مزاياه التى تكسبه الجودة والـكمال في أفعاله ، والخلق الجميل وجودة التمييز هما اللذان يكسبان افعالنا جودة وكمالا

فابو نصر الفارابى يوافق ارسطو في أن الخير الاعلى هو السعادة ، غير أن الفارابى يجعل الفضائل النفسية والسعادة شيئا واحدا ، فلا حرج عليه في أن يقصر الخير الاعلى على السعادة . وأما ارسطو فانه يذهب الى أن الفضائل النفسية هي الركن الاعظم فى تقويم حقيقة السعادة ، ويجعل من متمماتها الخيرات البدنية والخارجية ، واذا كانت السعادة تتناول الثروة وصحة البدن والجمال ، فليس من الصواب أن تكون الخير الاعلى ، اذ مقتضاه أن من بلغ في الحكمة والخلق الجميل غايتهما وفاته أن يكون جميل الوجه أو واسع الرزق أو صحيح البدن ، يعد محروما من الخير الاعلى ، لانه لم يستوف وسائل السعادة ، وهـذا ما لا تقبله العقول التى قدرت الحكمة والفضيلة النفسية قدرهما

اذا كان الفتى ضخم المعالي
فليس يضره الجسم النحيل

﴿ رأي ابن مسكويه ﴾

يقول ابن مسكويه في مؤلف له فى السعادة : إن الغايات التى يتوجه اليها الناس ترجع الى قسمين :

(أولها) ما يشترك فيه الناس والحيوان كالمأكل والمشرب ونحوهما مما يسميه الناس لذيذا ، وهذا مما يظنه أكثر الناس سعادة وليس الامر كما يظنون ، فان ما كان مشتركا بيننا وبين البهائم ليس من شأنه أن يكون كمالا لنا من حيث أنا أناس ، فلا يدخل فى باب سعادتنا

(ثانيهما) ما يختص به الانسان ولا يشاركه فيه غيره من الحيوان وهو الافعال الفاضلة والخلق الجميل وقوة الذهن ، ولهذه الامور الثلاثة تتحقق السعادة ، هذا رأي ابن مسكويه في كتاب السعادة ، وهو في أصله لا يختلف عن مذهب الفارابى في أن مصدر السعادة الفضائل النفسية . واذا ذكر ابن مسكويه الاعمال الفاضلة فهي مقصودة للفارابى وغيره ممن يجعلون السعادة في كمال النفس ، وانظروا الى قول الفارابى « والخلق الجميل وجودة التمييز هما اللذان يكسبان أفعالنا جودة وكمالا »

والسعادة عند أبى نصر الفارابى وعند ابن مسكويه ، مما يدخل

في استطاعة الانسان ، أما الاعمال الفاضلة فانها تصدر عن الخلق الجميل وقوة الذهن ، وأما الخلق الجميل فيكتسب بمزاولة علم الاخلاق فانه يبين فيه الفضائل والسبيل الى اقتنائها والرذائل والسبيل الى توقيها ، وأما قوة الذهن وجودة التمييز فتكتسب بدراسة علم المنطق ، وهو صناعة اذا أتقنها الانسان جاد تمييزه وعرف مراتب الاقناع وتقرير الآراء على ما ينبغي

ويقرر ابن مسكويه أن للسعادة معنى خاصا ، وهو ما يختص به كل صاحب علم أو صناعة ، فسعادة الطبيب في معرفة العلل ومعالجتها بالادواء النافعة ، وسعادة المحامي في تمييز الحقوق والدفاع عنها بحزم وأمانة ، وسعادة الصحفي في تحريه الصدق فيما ينشر وأخذه بالاخلاص فيما يكتب ، وسعادة القاضي في فصل القضايا على وجه العدل والانصاف ، وسعادة العضو فى مجلس النواب أن يسلك سبيل المصلحة العامة قاطعا النظر عن المنافع الشخصية أو الحزبية ، وهكذا الشأن في كل صاحب علم أو صناعة ، فان سعادته على قدر اتقانه للعلم أو الصناعة واتيانه بالعمل على وجهه الصحيح

ولابن مسكويه في كتاب الاخلاق رأي يميل به الى مذهب ارسطو ، فانه بعد ان ذكر آراء الفلاسفة في السعادة قصد الى بيان ما يختاره في حقيقتها فقال « ان الانسان ذو فضيلة روحية ،

وفضيلة جسمية ، وما دام الانسان انسانا لا تتم له السعادة الا بتحصيل الفضيلتين كلتيهما ، ولا تحصل له الفضيلتان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الابدية » ويريد بالاشياء النافعة أمثال الرياسة والثروة . والى نفع الثروة فى الوصول الى الحكمة يشير الطغرائي بقوله :

أريد بسطة مال أستعين بها على اداء حقوق للعلا قِبَلي

واذا قصرنا الخير الاعلى على كمال النفس الذى يحتوي معرفة الله والاعمال الفاضلة فلا بأس فى أن تكون السعادة في هذا الكمال ثم فى الخيرات التى هي بمنزلة الوسائل الى ما هو الخير الاعلى ، ولا بأس فى أن يكون الناس فى السعادة على مراتب متفاوتة ، أو أن يكون الانسان وافي الحظ فى السعادة فى حال ، قليل الحظ منها في حال ، فيستقيم لنا اذاً ان نقول : السعادة حالة الانسان الموافقة لارادته وآماله المنبعثة في حدود الفضيلة ، والسلام عليكم ورحمة الله



صبر محمد ﷺ ومتانة عزمه

خطبة القيت في نادي جمعية الشبان المسلمين مساء الاثنين ١٩ ربيع الاول سنة ١٣٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على أن هديتنا صراطاً سويا ، ونصلي ونسلم على سيّدنا محمد الذي أنزلت عليه قرآنا عربيا ، ورفعته في سماء السيادة والعظمة مكاناً عليا ، وعلى آله وصحبه وكل من دعا الى سبيلك مخلصاً تقيا . أما من زاغ عن الهدى ، أو اتخذ من المضلين عضدا ، فاليك إيابُه وعليك حسابه

أيها السادة ،

نحتفل بذكرى مولد أكمل الخليقة ، وانما نحتفل بمطلع الهداية التى أخرجت العالم من الظلمات الى النور ، وعلّمت البشر من وجوه الحكمة ما لم يكونوا يعلمون . وخير الاحتفال بذكرى مولد المصطفى أن نلقي على حضراتكم كلمات نقتبسها من سيرته السنية وخلقه العظيم ، وقد اخترتُ أن أجعل كلمتى تذكرة بسعة صبره ومتانة عزمه ، فانهما من أسمى الخصال التى بلغ بها الغاية من الدعوة ، وما كان محمد يدعو الا الى سعادة ، واصلاح ، ونظام

أوحى الله الى محمد ما أوحى ، فكان نور اليقين يسعى بين يديه ، ويسير به في سبيل الدعوة فلا يسأم ولا ييأس ولا يرهب سطوة غير سطوة الخالق ولا يخشى

يتجلى صبر محمد في استقامته كما أمر الله ، ومواصلته العبادة آناء الليل وأطراف النهار ، فقد كان – صلوات الله عليه – يقوم الليل ناسكا متهجداً ، وكان هذا القيام في حقه أمراً مفترضاً عليه يقول الله تعالى « يا أيها المزَّمّل قُم الليلَ الا قليلا نصفَه أو انقصْ منه قليلا ، أو زدْ عليه ورتّل القرآنَ ترتيلا » وقوله تعالى « ومن الليل فتهجدْ به نافلة لك عسى أن يبعثك ربكَ مقاماً محموداً » وفي حديث المغيرة المروي فى صحيح البخاري « إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم أو ليصلي حتى تَرِمَ قدماه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » وسُئلتْ ام المؤمنين عائشة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان عمله دِيمه ، وأيكم يطيق ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق ؟

ولو لم يكن محمد – صلوات الله عليه – مخلصاً فيما يفعل صادقا فيما يبلغ ، لما استطاع أن يملأ الليل والنهار بعبادات يأخذ بها نفسه في الحضر والسفر ، ويقوم بها في العلانية كما يقوم بها في حجرته وأهلُ الحجرة نائمون

وقد خطر على أذهان بعض الصحابة أنهم في حاجة الى أن يجهدوا أنفسهم فى العمل الصالح أكثر مما يجهد رسول الله نفسه ، بحجة أن الله اصطفاه برسالته ، وخلع عليه من حلل رضوانه ، فهو مغفور له ومحمود المقام عند الله على أي حال ، ذكروا هذا الخاطر في حضرة الرسول فقابله بالغضب ، وأرشدهم الى أن العبادة والتقوى على قدر المعرفة بالله ، وأنه أتقاهم لله وأعلمهم به . وفي صحيح البخاري « كان اذا أمرهم من الاعمال بما يطيقون ، قالوا : انا لسنا كهيأتك يا رسول الله ، ان الله قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ، ثم يقول : « ان أتقاكم وأعلمكم بالله أنا »

ولو لم يكن محمد مخلصاً فيما يفعل ، صادقا فيما يبلغ ، لكان شأنه أن يرتاح لخاطر كهذا ويتكيء عليه في الاقلال من العبادة ، فيخفف عن نفسه شيئاً من حملها الكبير

يُعلّم محمد بسيرته عظماء الرجال أن القيام على العبادة الخالصة لا يبطيء بالرجل أن يكون فاتحا مظفرا ، أو سياسياً راشداً ، أو طامحا الى همم تطلع وتغرب من تحتها كواكب الجوزاء ، بل انَّ تقوى الله بحق هي أساس كل عزة وعظمة

يتجلى صبر محمد وشدة عزمه في احتمال ما تجري به صروف الاقدار من الشدائد والخطوب ، فانه كان يتلقاها بقلب لا يخضع للنوائب ، وعزم تزول الراسيات ولا يزول ، وأقرب مثل نسوقه على هذا الخلق الجليل واقعة أُحد التي قضى الله بأن يبلو فيها المسلمين ، ويميز بها المنافقين من المؤمنين ، فقد لقي فيها رسول الله بأسا شديداً و كسرت فيها رباعيته وجرحت وجنته وشفته ، وجُحشت ركبته حتى اضطر الى أن يؤدي الصلاة في ذلك اليوم جالسا ، وقتل عمه حمزة بن عبد المطلب ومثل به أفظع تمثيل ، ولكنه حذر عليه الصلاة والسلام أن يظن المشركون به وبأصحابه وهنا وتدور نشوة الانتصار في رؤوسهم فيهموا بالعود الى المدينة ويطمعوا في استئصال من فيها من المسلمين ، فقصد الى أن يريهم قوة وعزما ، فبعث في الغد من ينادى في الناس بطلب العدوّ ، ويؤذنهم أن لا يخرج معه الا من شهد الوقعة بالامس ، فانتدب منهم سبعون رجلا فخرج بهم يقفو أثر القوم حتى بلغ القوم مكانا يقال له (حمراء الاسد) فالقى الله الرعب في قلوب المشركين فانصرفوا الى ديارهم ، وانقلب رسول الله والذين معه الى المدينة وقد أمنوا ما كانوا يحذرون

يُعلّم محمد بسيرته المجاهدَ في سبيل الحق أن يثبت في وجه

أشياع الباطل ولا يَهِن في دفاعهم وتقويم عوجهم ، ولا يهوله أن تقبل عليهم الايام فيشتدّ بأسهم ويجلبوا بخيلهم ورجلهم ، فقد يكون للباطل جولة ولاشياعه صولة ، أما العاقبة فانما هي للذين صبروا والذين هم مصلحون

يتجلى صبر محمد وقوة عزمه ساعة يعتدي عليه السفهاء من خصوم هدايته ، فانه كان ﷺ يقابل أذاهم بالتجلد والمضى في الدعوة كيف يشاء ، ولَشدّ ما لقي من الاذى فلم يحجم به يوما عن أن يصدع بما أمر الله ، ولم يحجم به يوما عن أن يضرب بالدعوة في وجوه اولئك الجبابرة ، وهذه السيرة تعلم الناهضين بالامم الى مراقى الفلاح كيف يؤثرون الحق على أنفسهم ومن في الارض جميعا ، ولا أدل على عظمة الرجل من أن يستبين سبيل الرشد فيسلكها في سكينة وقرارة جأش ، ثم لا يبالي عبث المستهزئين وما يعترضه من أذى المبطلين

يتجلى صبر محمد وقوّة عزمه في اقدامه على هم لا تدرك الا بمعاناة مصاعب واقتحام أخطار

له همم لا منتهى لكبارها وهمّتُه الصغرى أجلُّ من الدهر

بلغه عليه الصلاة والسلام أن الروم ومن يظاهرهم من قبائل العرب المتنصّرة اخذوا يتأهبون للزحف عليه بالمدينة ، فنادى

بالنفير العام ، وانبعث في سفر بعيد الشقة الى أن وطيء أرض الروم فخالط قلوبهم رعبٌ وجنحوا للسلم فجنح لها ووادعهم الى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا

يُعلّم محمد بمثل هذه الغزوة رؤساء الشعوب أن لا يقعد بهم حبُّ الراحة والنعيم العاجل ويغيبوا عما وراء بلادهم حتى يطل عليهم العدو بخيله ورَجله ، ويصب عليهم من سيطرته عذابا مهينا

يتجلى صبر محمد وقوّةُ عزمه في أقوال يتبرأ بها من أن يصرفه عن الدعوة الى الدين الحنيف صارف ، وهو الذي يقول « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يُظهره الله أو أهلكَ فيه ، ما تركتُه »

بمثل هذه الكلم النوابغ يعلّم محمد دعاة الاصلاح من بعده أن يكونوا من العزم الصامت بحيث يمضون في سبيلهم مضي الشهاب الثاقب ، ولا يتردد بهم في هذا السبيل أن يصانعهم الذين لا يحبون الناصحين ولو ملأوا ما بين أيديهم لجينا وعسجدا

واذا كان الرفق والاناة شعبة من شعب الصبر فقد كان محمد ــ صلوات الله عليه ــ يقابل الاساءة بالرفق والاناة . نقرأ في صحيح البخاري أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاه فاغلظ له في

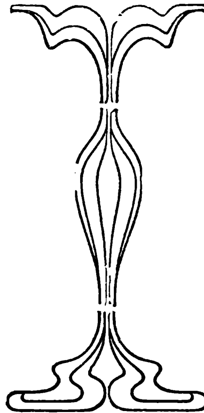
القول ، فهمّ به أصحابه ، فقال « دعوه ، فان لصاحب الحق مقالا » ونقرأ في صحيح البخاري أن رهطاً من اليهود دخلوا عليه وقالوا « السام عليكم » محرّفين كلمة « السلام » الى « السام » والسام الموت ، فلم يزد رسول الله على أن قال « وعليكم » ولما ردت عليهم ام المؤمنين عائشة بقولها « وعليكم السام واللعنة » قال لها « مهلا ياعائشة إن الله يحب الرفق في الامر كله » . ونقرأ في صحيح البخاري أن عائشة بنت الصديق تصف رسول الله فتقول : « والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى اليه قط ، حتى تنتهك حرمات الله فينتقم له »

ونحن اذا تقصينا سيرته بحثا وتنقيبا وجدناها مصدّقة لما وصفته به أم المؤمنين من الرفق والحلم ، فما عاقب عليه الصلاة والسلام أحداً مسه بأذى ، ولا اضطغن على أحد أغلظله في القول ، بل كان يلاقي الاساءة بالحسنى والغلظة بالرفق الا أن يتعدّى الشر فيلقي في سبيل الدعوة حجراً أو يحدث في نظام الامة خللا ، فلمحمد يومئذ شأنه الذي يقول فيه « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »

فهذه السيرة ترشد رئيس القوم الى أن يوسع صدره لمن يناقشه ويجادله ولو صاغ أقواله في غلظة وجفاء ، فسيرة رسول الله

هي التي علمت معاوية بن أبي سفيان أن يقول : والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، فان لم يكن من أحدكم سوى كلمة يقولها ليشتفي بها ، فانى أجعل له ذلك دَبْر اذني وتحت قدمي

فمحمد الذي قرر الحرية في الاموال والانفس والاعراض ، قد قرر الحرية في نقد أعمال الرعاة المسؤولين ، فحقيق على عشاق الحرية الفاضلة أن يحتفلوا بذكرى مولد النبي الذى جامل من أغلظ له في القول وقال لاصحابه « دعوه فان لصاحب الحق مقالا »



حياة أسد بن الفرات

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة ،

أعرض على حضراتكم آثاراً من سيرة رجل يدخل في سلك العلماء الراسخين ، وتقرأون اسمه فى سلك الابطال الفاتحين ، وهو مؤلف المدونة وفاتح صقلية أسد بن الفرات

قضى أسد بن الفرات معظم حياته بمدينة القيروان ، ولحياته صلة بالعلم وصلة بالسياسة ، فيحسن بنا أن نفتتح المحاضرة بكلمة نأتي بها على موقع القيروان ونلم فيها بحياتها السياسية والعلمية للعهد الذي نشأ وعاش فيه أسد بن الفرات

﴿ القيروان ﴾

لا يغيب عن حضراتكم أن تونس فتحت أولا في عهد عثمان ابن عفان بسيف عامله على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكانت آخرة هذا الفتح أن لاذ الروم والبربر بطلب الصلح ،

فصالحهم الفاتحون على مقدار وافر من المال ، تسلّموه منهم وولوا عنهم الى مصر وما وراءها راجعين

وبعد أن وقعت الخلافة في يد معاوية بن أبي سفيان بعث الى افريقية[1] جيشاً يقوده معاوية بن أبي حديج الكندي ففتح منها بلاداً كثيرة ثم عاد الى مصر وخلفه عقبة بن نافع الفهري فجعل من فاتحة أعماله أن خطط تلك المدينة التى تسمى « القيروان » وهي واقعة من مدينة تونس في ناحية الجنوب ، تبعد عنها بمسير خمس ساعات فى سكة الحديد ، وتقدر هذه المسافة في القديم بنحو مائة ميل

﴿ الحالة السياسية ﴾

ظلت القيروان منذ أنشأها عقبة بن نافع عاصمة افريقية ، وظل ولاتها يفدون عليها من قبل الخليفة فى الشرق الى أن اضطرب حبل الامن ، وحل بعض الزعماء فيها وكاء الفتنة ، فبعث أبو جعفر المنصور جيشا على رأسه محمد بن الاشعث سنة ١٤٤ فاخمد الثائرة ، وصارت ولاية افريقية عقب هـذا الى المهلبيين ، ومنهم يزيد بن حاتم الذي مدحه ربيعة الرقي بالشعر المتداول :

(١) تطلق افريقية على ما بين برقة وطنجة ، وقد تطلق على القيروان لانها كانت عاصمة ملك افريقية

لشتان ما بين اليزيدين في الندى　　يزيد سليم والـيزيد بن حاتم

ثم الى الاغالبة ومؤسس دولتهم ابراهيم بن الاغلب ، وكان ابراهيم هذا قد رغب الى الخليفة هارون الرشيد في أن يمنحه امارة افريقية فأجاب رغبته وكتب له عهد الامارة سنة ١٨٤ فاستقل بشؤون افريقية الداخلية وأقام دولة يقال لهـا دولة بنى الاغلب ، وكان يجمع فى سياسته بين الحزم والرأفة ويضيف الى هذه الخصلة الحميدة علماً وأدباً ، فامتدت في أيامه ظلال الامن والقت اليه القبائل بحسن الطاعة حتى توفى سـنة ١٩٦ فخلفه ابنه عبيد الله وذهب في سياسته مذهب الشطط والعسف ، وما لبث أن هلك وصار الامر لأخيه زيادة الله فبايعه الاهالي سنة ٢٠١ ثم جاءه التقليد من قبل الخليفة المأمون ، وكان زيادة الله فصيح المنطق مكيناً في العربية وآدابها ، وفي عهده تولى أسد بن الفرات قضاء القيروان وقيادة الجيش الفاتح لصقلية

فأسد بن الفرات عاش ما بين مدينتيْ القيروان وتونس أيام تداولَ سياسة ذلك القطر المهلبيون ثم الاغالبـة ، وفي كلتا الدولتين رجال علم وأدب وهمم سامية وذلك مما ينهض بأمثال أسد في النباهة والذكاء الى أن يكون من عظماء الرجال الذين يذكرهم التاريخ بتمجيد واجلال

﴿ الحالة العلمية ﴾

لأهل تونس في العهد الذي نشأ فيه ابن الفرات وما يقرب منه ، عناية بالعلوم الاسلامية ، فكانوا يرحلون الى بلاد الشرق للأخذ عن علمائها ، ومن أشهر هؤلاء الراحلين أبو البقاء عبدالرحمن ابن زياد بن أنعم المعافري ، فانه رحل الى الشرق وأخذ عن جماعة من التابعين ، ثم عاد الى القيروان وبث ما عنده من علم ، ورحل مرة أخرى الى العراق واجتمع بأبي جعفر المنصور وهو يومئذ الخليفة وكان قد عرفه أيام رحلته الاولى وصاحبه في طلب العلم ، فعرض عليه الخليفة المقام ببغداد فأبى فقلده قضاء القيروان وتوجه في جيش ابن الاشعث الذي سار اقمع ثورة البربر بافريقية

وكان عبد الرحمن هذا في طليعة العلماء الذين نشروا في البلاد التونسية علما وأدباً ، وظهروا بالاقدام على نصيحة ولاة الامور . ومن آثاره الأدبية قوله في أبيات نظمها خطابا لابنه أنعم حين أخذ في التوجه من العراق الى القيروان :

ذكرت القيروان فهاج شوقي ... وأين القيروان من العراق
مسيرة أشهر للعير نصاً ... وللخيل المضمرة العتاق
فبلغ أنعما وبني أبيه ... ومن يرجى لنا وله التلاقي
بأن الله قد خلى سبيلي ... وجد بنا المسير الى فراق

وهذه الأبيات على سهولة لفظها وقرب مأخذها تدل على أن لصاحبها قدما في الأدب راسخة

ومن دلائل اقدامه على نصيحة أولى الأمر أنه حين دخل على أبي جعفر المنصور قال له : كيف رأيت ما وراء بابنا ؟ قال : رأيت ظلماً فاشياً وأمراً قبيحاً ، قال له أبو جعفر : لعله فيما بعد من بابي ، قال : بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ . قال : ما يمنعك أن ترفع ذلك الينا وقولك مقبول عندنا ؟ قال : رأيت السلطان سوقا ، وانما يرفع الى كل سوق ما ينفق فيه . قال له : كأنك كرهت صحبتنا ! قال : ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم ، ولكني تركت عجوزاً واني أحب مطالعتها . فولاه قضاء افريقيه وتوجه في جيش ابن الأشعث كما قصصنا

وظهر بعد عبد الرحمن هذا طبقة من أهل العلم راقية ، رحلوا الى الشرق وأخذوا عن مالك بن أنس : كعبد الله بن أبي حسان اليحصبي ، وعبد الله بن غانم ، وعبد الله بن فروخ ، وعلي بن زياد الذي هو أحد أساتذة أسد بن الفرات

فأسد بن الفرات شب وعاش في بيئة علم واسع وأدب غزير ، وقد ساعدته هذه البيئة على أن يكون انتفاعه من الرحلة التى تقلبت به في الحجاز والعراق والقاهرة عظيما سريعا ، وسنقص

على حضراتكم شيئاً من أنبائها وأنباء ما عاد به الى وطنه من علم وافر نبيل

﴿ مولد أسد ونشأته ﴾

المعروف من نسب أسد أنه أسد بن الفرات بن سنان مولى سليم ، وأصله من نيسابور أحد أعمال خراسان ، وكان أسد يقول على وجه الاستملاح : أنا أسد والأسد خير الوحوش ، وابن الفرات والفرات خير المياه ، وجدي سنان والسنان خير السلاح

ولد أسد ببلد حرّان من ديار بكر سنة ١٤٢ وكان أبوه الفرات من جند خراسان ، فلما بعث أبو جعفر المنصور محمد بن الاشعث لاخماد فتنة البربر بافريقية ، كان الفرات في الجيش الذي يقوده محمد بن الأشعث ، فأخذ في صحبته ابنه أسداً وقد بلغ من العمر حولين ، فنزل بالقيروان وهي يومئذ عاصمة افريقية

بقي أسد بالقيروان نحو خمس سنين ثم انتقل به أبوه الى مدينة تونس وأقام بها سنين توفق فيها أسد الى طلب العلم فتلقى عن شيوخ أشهرهم علي بن زياد الذي لقي مالكا وأصبح أفقه العلماء بأفريقية

ولم يقنع أسد بما تلقاه شيوخ افريقية وتاقت نفسه لأن يزداد بسطة في العلم ، فأزمع الرحلة الى الشرق ، وكانت الرحلة ولا

زالت السبت الأقرب الى تثقيف العقل والنبوغ في العلم متى كان الراحل مجداً غير هازل ، نبيهاً غير خامل ، ولولا رجال من الامة يرحلون فيرِدُون مناهل العلوم ثم يصدرون ، لبقي كثير من الأمم في جهلهم ، أو على مقدار من العلم لا يرفع ذكرهم ولا يقوم بحاجاتهم

﴿ رحلته الى الحجاز ﴾

غادر أسد بن الفرات تونس سنة ١٧٢ فدخل المدينة وعالمُها الذي تضرب اليه أكباد الابل وقتئذ مالك بن أنس ، فلزم مجالسه وسمع منه كتاب الموطأ وبعد أن فرغ من سماعه قال لمالك : زودني يا أبا عبد الله . فقال له مالك : حسبك ما للناس

وكان أصحاب مالك ـ ابنُ القاسم وغيره ـ يهابون مالكا فلا يسألونه أو يناقشونه في العلم الا بمقدار ، ولما رأوا في أسد جرأة أخذوا يدفعونه الى سؤال مالك ، ويلقنونه ما شاءوا من المسائل يبتغون أجوبتها ، فكانوا اذا أجابه مالك عن مسألة ، يقولون له : قل له : لو كان كذا وكذا ، كيف يكون الحكم ؟ قال أسد : فأقول له حتى ضاق علي يوما وقال لي « سلسلة بنت سلسلة ، اذا كان كذا كان كذا وكذا ، ان أردت هذا فعليك بالعراق »

وكان الامام مالك يكره السؤال عن أحكام الحوادث قبل

وقوعها ، ذلك لأن اصول الشريعة محكمة ، ومقاصدها واضحة ، ووسائل الاستنباط ممهّدة فمتي وقعت الواقعـة وجدت من أئمة الاجتهاد من يفصل لها حكما موافقا

﴿ انتقاله الي العراق ﴾

قصد أسد المسير الي العراق ليتعلم من علمـائه ما لم يكن يعلم ، فدخل على مالك مودعا وقال له : أوصني . فقـال له مالك « أوصيك بتقوى الله والقرآن والنصيحة لهذه الامة »

رحل اسد الى العراق فلقي هنالك اصحاب الامام ابي حنيفة، و كان يشهد مجالس محمد بن الحسن العامة ، ولم يكتف بمـا كان يستفيده من هذه المجالس حتى اقترح على محمد بن الحسن أن يسمح له بوقت يخصه فيه بالدراسة ، فتقبل محمد بن الحسن اقتراحه وقال له : اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل كله وحدك، فتبيت عندي وأسمعك . قال أسد : فكنت أبيت في سقيفة بيت يسكن هو في علوه ، فكان ينزل الي ويضع بين يديه قدحا فيه ماء، ثم يأخذ في القراءة ، فاذا طال الليل ورآني نعست ملأ يده ماء ونضح به على وجهي فأنتبه ؛ فكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه

صنيع أسد بن الفرات يرينا كيف كان طلاب العلم في الاسلام ،

فلا نعجب لمن يقص علينا التاريخ أنهم بلغوا فى العلم ـ وهم لا يبعدون عن سن العشرين ـ منزلة سامية فائقة

وصنيع محمد بن الحسن يرينا كيف كان الاساتيذ يحنون على طلاب العلم حنو المرضعات على الفطيم ، ويقضون ليلهم ونهارهم فى انارة عقولهم وتوسيع دائرة معارفهم

﴿ انتقاله الى مصر ﴾

بعد أن تضلع أسد مما عند علماء العراق من علم انتقل الى مصر ، وقد ظهر بها وقتئذ أصحاب الامام مالك : ابن القاسم وأشهب وغيرهما ، فحضر أسد لاول قدومه مجلس أشهب بن عبد العزيز فصادف أن بدرت من أشهب كلمة تطاول بها على الامامين مالك وأبي حنيفة ، فأخذت أسد الحمية لهما ، ولم يتمالك أن قال : يا أشهب ، فأسكته الطلبة ، وقالوا له ماذا أردت أن تقول له ؟ قال : أردت أن أقول له : مثلك ومثلهما مثل رجل أتى بين بحرين فبال فرغى بوله ، فقال : هذا بحر ثالث

وكان ابن القاسم وأشهب يخالفان ما لكا في بعض الفتاوي ، غير أن في ابن القاسم أناة فلا يضم الى الخلاف قولة جافية ، أما أشهب فكان لا يبالي أن يزيد على الخلاف كلمة يتظاهر فيها

باستقلال النظر ما شاء

ثم اتصل أسد بابن القاسم وكان يغدو اليه فى كل يوم يلقى عليه مسائل ليجيبه عنها بما يرويه عن مالك أو تقتضيه أصول مذهبه ، حتى دوّن ستين كتاباً سماها الاسدية

ولما عزم أسد على العود الى القيروان سأله طلاب العلم هنا بمصر أن يسمح لهم باستنساخ ما دونه عن ابن القاسم أعني الاسدية ، فأبى عليهم ذلك ، فحسبوا أن هذا من الحقوق التي يتناولها القضاء ، فشكوه الى القاضي وهو يومئذ عمر بن مسروق الكندي ، فقال لهم : وأي سبيل لكم عليه ! رجل سأل رجلا فأجابه .ها هو المسئول بين أظهركم فاسألوه كما سأله . ثم ان القاضي رغب الى أسد في أن يسمح لهم باستنساخ الاسدية فأجاب طلب القاضي وسلمها لهم حتى فرغوا من نسخها

﴿ عودته الى القيروان ﴾

قضى أسد في رحلته نحو عشر سنين ثم عاد الى القيروان سنة ١٨١ وانتصب للتدريس وبثّ ما كسب من علم ، فاقبل عليه الطلاب يجتنون من ثمار رحلته ويتلقون عنه الموطأ وكتاب الاسدية وممن أخذ الاسدية الامام سحنون ثم ان سحنون رحل الى مصر سنة ١٨٨ وقرأ الاسدية بين يدي ابن القاسم نفسه ، وكان ابن

القاسم قد رجع في بعض مسائلها وقررها على غير ما سمع منه أسد ابن الفرات ، ولما فرغ سحنون من قراءتها كتب ابن القاسم رسالة الى أسد يأمره فيها بأن يصحح مدونته على النسخة التي يحملها سحنون ، عاد سحنون بالمدونة ودفع كتاب ابن القاسم الى أسد فأبى أسد أن يغير مدونته المسماة الاسدية وأبقاها على نحو ماسمعها عن ابن القاسم ، ولكن مدونة سحنون هي التي انتشرت في الآفاق وعول عليها الناس في الفتوى ، وهي التي تناولها الفقهاء بالشرح والاختصار

﴿ مكانته العلمية ﴾

عرفنا مما سلف أن أسداً تفقه عن علي بن زياد في تونس ، ثم رحل وأخذ عن مالك بالمدينة ، ثم عن أصحاب أبي حنيفة بالعراق ، ثم عن عبد الرحمن بن القاسم بالقاهرة ، وان مدة رحلته بلغت تسع سنين ، وإن تسع سنين يقضيها العالم الذكي في الازدياد من العلم بجد وتلهف ، لكفيلة بأن تخرجه للناس نحريراً فائقاً ، ومما نال أسد في هذه الرحلة من علم كان يقول مغتبطاً ومعرضا ببعض معاصريه بالقيروان « ضربنا في طلب العلم آباط الابل واغتربنا في البلاد ولقينا العلماء ، وغيرنا طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمه ، ويريدون بعد ذلك أن يلحقونا ! »

وتحدث محمد بن الحسن عن أسد في مكة فوصفه بالدراسة والمناظرة والسماع وكان قاضي القيروان عبد الله بن غانم يشاوره ويُعجب بعلمه ، وقال ابو بكر بن الابار في الحلة السيراء : « وكان لأسد بيان وبلاغة الا أنه بالعلم أشهر منه بالادب »

ومما امتاز به أسد عن معاصريه أنه كان يسرد في مجالسه أقوال أهل العراق ثم أقوال أهل المدينة ، وبهذه الطريقة اتسعت دائرة علم الفقه في تونس وأصبح طريق النظر في أحكام الشريعة ومداركها مألوفا ميسّرا . وقد تقدمه الى فتح هذا الباب بالقيروان عبد الله بن فروخ ، فانه رحل الى الشرق ولاقي مالكا وأبا حنيفة ، وكان يعتمد في فقهه على مالك ويأخذ بطريق النظر والاستدلال وقد يميل الى قول أهل العراق حين يستبين له أنه أرجح حجة وأقوم قيلا

﴿ ولايته القضاء ﴾

توفي قاضي القيروان عبد الله بن غانم فأقام زيادة الله مكانه أبا محرز محمد بن عبد الله الكناني ثم ان علي بن حميد وصف لزيادة الله فضل أسد ومكانته في العلم ، وسعى لديه في أن يصرف أبا محرز عن القضاء ويقلده أسد بن الفرات فلم يوافق زيادة الله على عزل أبي محرز ولكنه قلد أسداً القضاء مع أبي محرز سنة ٢٠٤ فكانا

يقضيان ، كل منهما بمكانه بحيث يكون المتداعيان بالخيار

وفي مدينة تونس لهذا العهد محكمتان : احداهما تحكم على المذهب المالكي واخراهما تحكم على مذهب أبي حنيفة ، ويسيران في القضاء على أن الخيار للمدعَى عليه ، وعباراتهم الجارية في هذا المعنى « المطلوب يتوجه حيث شاء »

أما تولية قاضيين لتطرح بينهما القضايا ويصدرا فيها حكما واحداً فقد كان الخليفة المهدي استخلف على القضاء محمد بن علاثة، وعافية بن يزيد فكانا يقضيان معا في مسجد الرصافة

﴿ شجاعته الادبيه ﴾

كان أسد على شاكلة العلماء الذين يصغر فى أعينهم أهل الدنيا ولا تملك عليهم سطوة السلطان ألسنتهم فيدهنوا ، دخل أسد وابو محرز على منصور الطبري يوم ثار على زيادة الله واستولى على القيروان وهما قاضيان ، فقال لهما ذلك الثائر فى كلام دار بينهما « اخرجا عني ، اما تعلمان ان هذا البائس (يعني زيادة الله) ظلم المسلمين ! » اما ابو محرز فخالطه رعب وقال له : وظلم اليهود والنصارى . واما اسد فانه ملك جأشه وآثر ان يقول كلمة حق على ان يسكت امام صولة باطل ، فقال له : كنتم اعوانا له قبل هذا الوقت وانتم وهو على مثل هذا الحال ، ولما وسعنا الوقوف عنه

وعنكم ، فكذلك يسعنا الوقوف عنه وحده . ولما دافع اسد بهذه الكلمة صال عليه بعض الجند القائمين على رأس الثائر ، ثم انصرف القاضيان وهما يتوقعان بطشة الثائر الغشوم ، ولكن الله صرف قلبه عنهما فلم يمسهما بأذى

﴿ فتحه صقلية[١] ﴾

صقلية : جزيرة فى البحر المتوسط لا يفصلها عن اوربا الايطالية الا مضيق مسينا ، وهي التى تسمى « سيسيليا »

أما سبب فتحها فهو أنه كان بين زيادة الله وصاحب صقلية عقد هدنة ، ومما احتواه هذا العقد أن من وقع الى صقلية من المسلمين ورغب أن يرد الى بلاد الاسلام كان عليهم أن يردوه اليها . ثم ان صاحب صقلية قصد الى الايقاع بزعيم يقال له « فيمه » فتخلص هذا الزعيم وأتباعه من صقلية وهبطوا القيروان يستنجدون بصاحب الدولة زيادة الله بن الاغلب ، ورفعوا اليه ان في أيدي الروم أساري من المسلمين لم يمكنوهم من العود الى أوطانهم ، فجمع زيادة الله وجوه الناس ، وأحضر أسد بن الفرات وأبا محرز وسألهما

(١) ضبطها صاحب القاموس بكسر الصاد والقاف ، وضبطها ابن خلكان بفتحهما ، وكذلك يقول ابن هشام اللخمي في لحن العامة : ويقولون سقلية بسين مكسورة ، والصواب صقلية بصاد وقاف مفتوحتين

الرأي فيما يصنع ، فأما ابن محرز فقال : نتأنى في هـذا الامر حتى نكون فيه على بينة ، وأما أسد بن الفرات فقال : نتبين الامر من رسلهم ، فان شهدوا بان هنالك أسرى أصبح عقد الهدنة بيننـا وبينهم منقوضاً ، فقال له ابن محرز : كيف نعتمد على قول الرسل في مثل هـذا ! فقال أسد : بالرسل هادناهم ، وبالرسل نجعلهم ناقضين . فارتاح زيادة الله لقول أسد وسأل الرسل ، وكان بين الرسل رجل مسلم ، فشهدوا بان لدى الروم مسلمين محبوسين عن العود الى أوطانهم

أمر زيادة الله يومئذ بالخروج الى صقلية ، فعرض أسد نفسه ليخرج في الجيوش المحاربة ، فتباطأ زيادة الله عن اجابته وامتعض أسد من تباطئه حتى قال : قد أصابوا من يجري لهم مراكبهم من النوتية ، وما أحوجهم الى من يجريها لهم بالكتاب والسنة ، ولما وثق زيادة الله من صدق عزيمته أذن له بالخروج على أن يكون أمير الجيش في هذه الغزوة ، فكره أسد الامارة ظنا منه أنه سيتقلدها بدل القضاء . وقال لزيادة الله عند ما عزم عليه في ولايتها : اصلح الله الامير ، من بعد القضاء والنظر في حلال الله وحرامه ، يعزلني ويوليني الامارة ! فقـال له زيادة الله : اني لم أعزلك عن القضاء بل وليتك الامارة ، وأبقيت لك اسم القضاء ، فأنت قاض أمير . فرضي أسد عند ذلك بالامارة ، ويقول المؤرخون : لم

تجتمع الامارة والقضاء لأحد ببلاد افريقية الا لاسد وحده . وأما في غير افريقية فقد اجتمع القضاء وامارة الجيوش لبعض علماء بغداد والاندلس قال ابن خلدون : « وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الصوائف ، وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة الى أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالاندلس »

اذن زيادة الله بأن تهيأ السفن وتساق الى مرسى مدينة سوسة ، وكانت نحواً من مائة سفينة ، وجهز جنداً يقدرونه بعشرة آلاف رجل وتسعمائة فارس

خرج أسد في ربيع سنة ٢١٢ متوجهاً الى مدينة سوسة ليقلع منها الى صقلية ، وكان يوم خروجه من القيروان يوماً مشهوداً ، خرج وجوه أهل العلم لتشييعه ، وأمر زيادة الله أن لا يبقى أحد من رجال الدولة الا شيعه ، فركب أسد وسار في محفل عظيم من الناس ، ولما رأى حملة الاقلام والسيوف يحتفون به من كل جانب ، لم يشأ أن تمر هذه الفرصة دون أن ينوه فيها بفضل العلم ، وينبه على ما يلقاه العالمون من خير وعزة ، فقال :

« لا اله الا الله وحده لا شريك له ، والله يا معشر الناس ما ولى لي أب ولا جد ولاية قط ، وما رأى احد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام ، فاجهدوا أنفسكم

وأتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكابدوا عليه ، واصبروا على شدته ، فانكم تنالون به الدنيا والآخرة »

ركب أسد البحر يوم السبت منتصف ربيع الاول سنة ٢١٢ والقى مراسي السفن على مدينة مأزر من بلاد صقلية يوم الثلاثاء وزحف اليه صاحب صقلية بلاته في جيوش عظيمة والتقى الجمعان فكانت العاقبة ان فشلت جيوش الروم وارتدت على اعقابها خاسرة . وبث اسد السرايا في كل ناحية ، واستولى على عدة حصون حتى ضرب الحصار على سِرَكوسة ، وفي أثناء حصاره لهذه المدينة توفاه الله في ربيع الآخر وقيل في شعبان سنة ٢١٣ (١) بجراحات شديدة أصابته في احدى الوقائع ، إذ كان أسد يحمل اللواء بيده ويدعو الناس الى الاقدام ثم يخوض بهم مواقع القتال . قال ابن أبي الفضل ــ وكان فيمن شهد يوم فتح صقلية ــ « رأيت أسد بن الفرات وفي يده اللواء فحملوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فقال للناس (مشيراً الى جيش العدو) : هؤلاء عجم الساحل (٢) ، هؤلاء عبيدكم ، لا تهابوهم . وحمل اللواء وحمل الناس معه ، فانهزم بلاته وأصحابه ، فلما انصرف أسد رأيت والله الدم قد سال مع قناة اللواء على ذراعه حتى صار الدم تحت ابطه »

---

(١) ودفن هنالك ، وقال ابن خلدون : في قصر يانه ، وكتب زيادة الله بفتح صقلية على يد اسد الى المامون

(٢) يريد انهم الذين فروا من ساحل افريقية عند فتحها

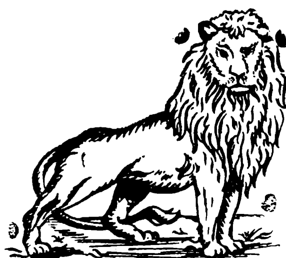
وكان أسد يرجو من الله ما لا يرجوه الجبناء ضعفاء الايمان ، فكان على ثقة من أنه سيكسر جيش الروم بلغ من الكثرة ما شاء أن يبلغ . ويدل على هذا ان الزعيم « فيمه » تأهّب لأن يقاتل هو والذين معه بجانب جنود الاسلام ، فأبى أسد وقال له : اعتزلنا فلا حاجة لنا بأن تعينونا . وقال له ولاصحابه : اجعلوا على رؤوسكم سيما تعرفون بها ، لئلا يتوهم واحد منا أنكم من هؤلاء المواقفين لنا ، فيصيبكم بمكروه . فاتخذوا سيماهم في ذلك اليوم حشيشاً يضعونه على رؤوسهم

ومما يشهد على أن أسداً كان يحمل في صدره قلب البطل الذي لا يرى مرارة للموت الا في الخوف منه أن الجيش الاسلامي بلي بعد نزول صقلية بمجاعة اضطرته الى أكل لحوم الخيل ، فمشى فريق منهم الى زعيم يقال له سحنون بن قادم ليسعى لدى أسد في الرجوع بهم الى افريقية فمضى الى أسد وخاطبه في هذا الشأن ، فكان جواب أسد أن قال : ما كنت لاكسر غزوة على المسلمين ، وفي المسلمين خير كثير . فاستجرأ عليه ابن قادم وقال : على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان . فتناوله أسد بالسوط وخفقه به ثلاثاً أو أربعاً ، ثم مضى على عزيمته فقاتل حتى فتح أكثر البلاد ، وأتم فتحها من بعده أفراد يعزمون فيفعلون

وانا لا أشك في ان تعاليم الاسلام متى تلقيت بحق طبعت

النفوس على الشجاعتين : الادبية والحربية ، فلا عجب أن يخرج من بين مجالس مالك بن أنس ومحمد بن الحسن وعبد الرحمن بن القاسم بطل تحمل يمناه السيف بعد أن كانت تحمل اليراعة ، وتتخضب بحمرة الدم بعد أن كانت تتخضب بسواد المداد ؛ فيعيش عالماً صالحاً ، ويموت قائد جيش فاتحاً

ذلك هو أسد بن الفرات ، رحمه الله ورحم كل من جاهد فى سبيل سعادة الامة واعلاء شأنها ، ما استطاع الى الجهاد سبيلا



للمؤلف

كتب تطلب من المطبعة السلفية ومكتبتها

ص	
١٢	نقض كتاب (في الشعر الجاهلي)
٠٠	نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم (نفدت نسخه)
٣	الدعوة الى الاصلاح
١	الخطابة عند العرب
١½	علماء الاسلام في الاندلس
١	العظمة
٤	الخيال في الشعر العربي
٢	ثلاث محاضرات (وهي هذه)